مبارزة الافراد (الدولو)

لجناب جرجي افندي بني

هي عمل من اخطر اعمال البشر واكثرها قسوةً وابعدها عن العدل والصواب يتبارز فيها القرنان فيدعي الغالب انهُ محق لانهُ غلب. ولم يعرفها اليونان ولا الرومان ولم يعملوا بها ولكن الحروب القديمة كانت تضرم حينًا بعد حين على هذا النمط ان يتبارز الاكفاء من القومين قبل الحملة الكبرى فكانوا يعدُّون ظفر واحدٍ من المبارزين موجبًا لظفر قومهِ كما جرى للرومان والالبيين غير مرةٍ. بل ان هذه المبارزات في الاكثر من اسباب الحرب المنفرة فوهنها فلا يُلام اقرانها الا بما يُلام بهِ اهل الحروب. واما مبارزة الافراد فهي شرٌّ منها فانها تقع غالبًا بين وطنيين لا خلاف بينهم ولا ضغينة غير ما اوهنتهم بهِ الساعة من مس شرفٍ ونحوهِ فيتشقون الحسام للايقاع ببعضهم وان هم الا اصدقاء لم تُسلَب مودتهم الا منذ هنيهةٍ بخلاف الرومان واليونان فانهم كانوا اذا اختصموا يعدلون عن مقتل بعضهم ولا تاخذهم فئة عارضٍ فيفعلون ما لا يريدون على انهم كانوا يتبارون في الشجاعة. وقد روى قيصر الروماني ان تخاصم اثنان من زعماء شعبهِ فتداعيا لاظهار الشجاعة في ساحة الوغى لا بالمناجزة فلما كانت الموقعة الاولى وقد اصطفت الاعداء للقتال فاز واحدٌ منهما بكسرهم وارجاعهم القهقرى الا انهُ اوشك الوقوع قتيلاً فانبرى خصمهُ من موقفهِ وانقذهُ من الموت

وكان الغالة (اهل فرنسا القدماء) والجرمانيون اوّل من بارز مبارزةً فردية وذلك في الاجيال المتوسطة لما كانت الشريعة لغوًا والحق معلقًا بحد الحسام وزعماء القوم سواء كانوا حكومةً او فوضى لا يعارضون اتخاذ المقدرة حكّامًا بين الخصوم حتى ان الكنيسة مدّت للسياسة باعها فصادقتا على المبارزة ولم تقفا في طريق المبارزين لانهُ لم يكن في طاقتها ان تناوما سيل هذه العادة الجارف فاباحتا المبارزة بعد تنبيدها بنظامٍ مخصوص فشاعت المبارزة حتى صارت قاضيًا يفضي بين مسائل المتخالفين ووسيلة ينفذ الاشرار بها غاياتهم الى ان قام على توالي الايام قومٌ ادّعوا بالمحاماة عن النساء فزادوا على غيرهم في احتفال المبارزة والفتك بالمعاندين بان انشأوا لها مشهدًا وعينوا لها يومًا معدودًا يفتكون بهِ بمن اضرّ بالمصونات واساء معاملتهنّ وكان ذلك المشهد على شكل ملاعب الوحوش في رومية يتفاظر الناس اليهِ من اقاصي اوروبا فظل على مسيرهِ قرين النجاح حتى مقتل هنري الثاني ملك فرنسا في مشهد باريز سنة ١٥٥٩ وحينئذٍ وقع اضطراب وهيجان آل الى ابطالهِ

واما مبارزة الافراد فغايتها التعويض عن الضرر او تاكيد الحقوق زعمًا بان الله ينصر صاحب الحق ولذلك لم يكن الحكام يعارضونها فكان اذا اتفق اثنان على المبارزة يحميان اليوم والموقف

ثم لما يأتيانِ يقفان داخل حلقة طولها ثمانون قدمًا وعرضها اربعون ويحضر معهما مامورون يشكون السلاح ويركب المتبارزان ويتدججان بكل انواع السلاح المستعمل هجومًا ودفاعًا ويجلان الصلبان او صور القديسين تبركًا ثم يرتب المامورون المشاهدين حول الحلقة ولا يسمحون لهم بالركوب ومَنْ وجدوهُ راكبًا اخذوا جوادهُ منهُ وصلبوا اذنهُ ان لم يكن كريمًا . ثم يتقدم المامور الاول مع الكاهن الى المتبارزين ويطلب الى كلٍّ منهما ان يقسم ايمانًا بالصليب انهُ محقٌّ وانهُ غير حاملٍ تعاويذ ولا سلاحًا مسحورًا . فانهم كانوا يعتقدون بتاثيرها اعتقادًا قويًّا حتى اذا لم يصدق المامورون قسم المتبارزين يفتشون من يشكون فيهِ . وبعد انقضاء هذه الشروط الاولية يؤمر المتناجزان فيبدآن . وكانوا يعتبرون المغلوب محقوقًا فان لم يقتل بيد خصمهِ كانوا يشنقونهُ احيانًا او يعذبونهُ عذابًا اليمًا . وكانت العامة اذا تبارزت تتضارب بالنوابيس حتى يتخ الدرس وتهشم الاعضاء فان لم يمت المكسور من الامر يشنقونهُ ويسيرون بالمنصور في محفلٍ الى بيتهِ فيتاح لهُ التمتع بسلب مغلوبهِ

اما الاسباب الداعية الى المبارزة فكانت مستوية في عيون راغبيها لانهم لم يكونوا يفرقون بين المهم والطفيف من المصالح فيستكون الدماء حميًّا بقليل من الدراهم او نقمةٍ من قانولٍ او مرتكبٍ فظيعةٍ كأن كل القضايا على اسوةٍ لدى السيف الباتر . وفي سنة ١١٦٨ اصدر الملك لويس الصغير الفرنساوي امرًا بحصر الاسباب المالية الداعية للمبارزة في المبالغ التي لا تنقص قيمتها عن خمسة سو (السو عملة فرنساوية قيمة الواحد منها خمسة سنتيمات اي كل عشرين سوًّا فرنك واحد) وهذا يعادل في رائج معاملتنا خمسين بارةً وظل هذا الامر حتى الجيل السادس عشر وحينئذٍ انحصرت اسباب المبارزة في القضايا المهمة

لاجرم ان اطلاق العنان لهذه العادة السيئة آل الى تمكنها من القوم حتى اشتهر منهم كثيرون من سفاك الدماء الذين كانوا يتوقعون الايقاع بالناس ليبردوا ظماء نفوسهم الشريرة من دمائهم فمن اولئك الطغاة (يارد) المشهور بمن لا يخاف ولا يلام (وجان دو بوربون) القائل بمزمو على المجيء الى انكلترا ليقاتل فيها ابتغاء ان يرتمي كلامهُ سمعًا وكثيرون غيرهما من شرّ الناس سليقةً مما يدلّ على رغبة الناس في المبارزة وتهافتهم اليها عن طيب نفس حتى ان ادولف بن انولد دوك دو كولد رلند رغب في خلع ابيهِ عن الامارة لانهُ تمتع بملذاتها زمنًا طويلاً فغضب ابوهُ ودعاهُ للمناجزة في حضرة شارل الباسل دوك بوركندي فلبى الابن دعوة ابيهِ وتاهبا ولكن دوك بوركندي تحكم بينهما وقال ان تضاف البلاد المخاصم عليها الى بلادهِ فامتنعت المبارزة وصدق فيهم المثل القائل ارسلهُ لي خاطبًا فتزوج

ومن غريب الامور ان الملوك مع ما كانوا عليهِ يومئذٍ من الاستبداد والانفة عن العامة مافتئوا

يشاركون الرعية في رذيلتها حتى ان الامبراطور مكسيليان الاول عاهل المانيا بارز سنة ١٤٩٥ البطل الفرنساوي كلود دو باتر امام كل امراء المانيا ومختاري شعوبها ولم يقعدهُ علو مقامهِ وتحسُّب موتهِ وانقراض خلافتهِ عن ذلك فبارزهُ وفاز عليهِ

وفي اواخر الجيل السادس عشر تنبهت اوروبا من غفلتها فعدلت الحكومة عن السماح بالمبارزة وجدَّدت شرائع القضاء على اس القانون الروماني فاصبح اقتصاص الانسان لنفسهِ من معاديهِ امرًا فظيعًا ومخلاً بالراحة العمومية ومضرًّا بالهيئة الاجتماعية ولكن مضادة الحكومة لم تكن الاَّ سبيلاً لازدياد انتشار المبارزة وتجديد شكلها فصار المبارز لا يبارز خصمهُ وحدهُ بل يشاركهُ واحدًا من الناس او اكثر يقاتلون شركاء خصمهِ كما يقاتل هو خصمهُ ولم يكن في الغالب بين المتنازعين القانونيين اختلاف ومنازعة وكان ينقضي احيانًا قتال الاولين ولا ينقضي تلاحم الثانويين . ومن نقص الهيئة الاجتماعية يومئذٍ احتقار من لم يصبغ يديهِ بدم مبارزيهِ اولم يكن قد ناجز نزالاً على الاقل وكان الخليُّ من ذلك لا يحسب خليقًا بالخطة العسكرية . وكانت هذه آراء كل اوروبا وعلى الخصوص فرنسا .

وفي الجيل التاسع عشر اشتدت المبارزة في انكلترا واصبحت حكمًا يتقاضى اليها الخصوم وكان العامَّة يناجزون بعضهم باللكم واليد مطبقةً والاكابر يعمدون الى السيوف او السلاح الناري وفاقت ارلندا غيرها اذ لم يكن للشريعة عند اهلها من النفوذ ما لها في بلدان اخرى وكان ارباب الحل والعقد فيها اكثر المبارزين شهرةً واشدهم باسًا ومن اغرب الروايات ما لخصناهُ عن كتاب اسمهُ ارلاندا منذ ستين سنةً وهو : لم ينل احدٌ من كرام القوم خطتهُ ما لم يكن قد شمَّ البارود (اي بارز) ولم يُرقَ منصبٌ ولا تم انتخاب ما لم تسمع ببارزات كثيرة فكان كثيرون من رجال الندوة يرتقون المعالي لا لما يكونون عليهِ من الفصاحة في الخطاب او الاهلية القانونية بل لما يحرزون من الجراءة على المبارزة مع عدِّها حتى انهُ يقال ان حدثًا كان يستعد ليكون من الندوة فسأل رجلاً من محنكي الزمن عن الدروس التي يتعين عليهِ مباشرتها توصلاً لما يريد فاجابهُ ان تعلم استخدام السلاح يغنيك عن كلّ ما في المكاتب . ولا مشاحة في هذا لان كثيرين من الرجال العظام كاسكوت وباترسون وغيرهما كانوا من اشهر المبارزين وكان هنري كراتان رئيس مجلس النواب يشهر حسامهُ نجدةً لاوائلهِ فما خالفهُ احدٌ الاَّ بارزهُ حتى وزير المالية اه

اما المدارس فمع انها مصادر الادب ومحاة الانسانية لم تكن تخلو من وبال هذه العادة فكان الاساتذة والطلبة ينقضُّون على بعضهم ولا انقضاض الاعداء مدَّعين صيانة الشرف وكانهم يتمثلون بقول الشاعر :

لا يسلمُ الشرفُ الرفيعُ من الاذى حتى يُراقَ على جوانبهِ الدمُ

ومن العجب ان بعضًا من رؤساء المدارس ادخلوا اليها فنّ الذب عن النفس بمثابة سائر العلوم والآداب وكانوا يبارزون امام تلامذتهم تشجيعًا لهم على ما يطلبون .

وكان الارلنديون يربون اولادهم على لعب السلاح ويبذلون جهدهم في تشويقهم اليه حتى اصبح استعماله ملكةً فيهم وبات الاولاد يحسبون فوزهم بشيء منهُ نعمةً عظمى . ويقال ان الآباء كانوا يمكنون اولادهم اذا بكوا بوعدهم ان يعطوهم زوجًا من الغدارات او سيفًا او غير ذلك من السلاح قيل وكان لبعض العيال عدة من سلاح المبارزة يتوارثونها عن الآباء والجدود . ولم تكن عقبى كل مبارزة مقتل احد الاكفاء وانما كان اذا جُرِح احدهما او خُدِش عُدَّ خصمهُ من الظافرين وكان للاكفاء سواء كانوا اولبين او ثانويين سنّة مخصوصة تدير امورهم وترقب احكامهم فلا يتعدونها

ومن الادلّة على ان انتشار المبارزة جاء بملء الضرر انها كانت ملجأً يعدل اليهِ كثيرون من الظَّلَمة ثقةً من الذين ابوا نصرتهم على مظالمهم وحسبك من ذلك ما رُوِي عن واحدٍ من امراء ارلندا كان كثير الخصومة قليل الحظوى بالحق فيها فعنّت لهُ النقمة وعزم على مقاتلة القضاة والحامين عن اخصامهِ لانهم لم يحكموا لهُ وابتدأ يبارزهم الى ان صار على ثلثٍ منهم وقد تثخن بالجراح ثلاثًا فعدل عن قصدهِ خيفة الهلاك . لكن العجب في ما نقل عن الفرنساويين اسراء الاسبانيول في جزيرة كابريرا ايام حروب نابوليون فانهم لم يقعدهم سوء حالهم ووجوب انتفاعهم عن اتباع عادةٍ تنابذ الدين والعدل وتقضي على الشريعة قضاء مبرمًا بل ان اثنين من ضبّاطهم قادهما الحنق الى المناجزة ولم يكن لهما سلاحٌ يقتتلان بهِ فابتاع كلٌّ منهما موسى حلاقةٍ وشدَّهُ الى عصًا وقاتل فيهِ خصمهُ حتى فاز احدهما

وحسبنا بما تقدم توسعًا في التفصيل على انّا نعجب غاية العجب من تمكن هذه العادة السيئة من الاوربا ويين تمكنًا عظيمًا حالة كونهم متمسكين بالدين تمسكًا شديدًا ومن تغلبها على خدمة الدين انفسهم وعلى ابناء الادب واننا لا ننكر فضل الدين رغبوا في ابطالها بينما كان الصوت العام ضدهم ولم يطل الزمان بعد ذلك حتى نادت الشريعة بقتل المبارز لجنايتهِ فانقلب الراي العام واصبح الاوربا ويون الذين كانوا يسرعون لقتل الانسان على اختلاف خمسين بارة يضجون ويطلبون ان تشلّ يد الجلاّد فلا يقتل القاتول ونشرت الشريعة لواءها فصانت المستظلين بها وانا نحمد الله على تفلص تلك الآفة والاعتياض عنها بالعدالة والرافة

بايمو * قوم من قبائل المكسيك باميريكا وهم على حالة الخشونة . من غرائب نسائهم ان لهنّ نهودًا مفرطة في الكبر والطول حتى ان الواحدة منهنّ تحمل طفلها على ظهرها ثم تلقي اليهِ بنهدها المستطيل فيلتقمهُ الطفل ويرضعهُ ريثما امهُ تحرث الارض او تشتغل بغير ذلك [النحلة]